مقدمة في تاريخ الشعر الموريتاني

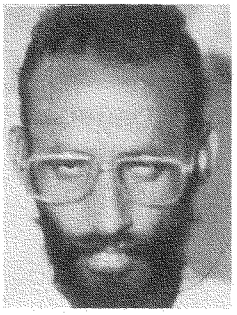

عبد الله ولد محمد سالم

I ـ تقديم

I-1 أن نكتب في «تاريخ الشعر الموريتاني» هو أن نلزم أنفسنا عناء الكتابة في موضوع نادر المصادر؛ ما زالت البحوث والآراء فيه تنطلق من مجرد «الافتراض» لانعدام «الوثائق»، وعدم تسلسل الأحداث؛ الأمر الذي يدفع بالباحث ـ دائماً ـ إلى التفكير في «تاريخ بديل» ينسجم وافتراضاته، أو يتلاءم ووثائقه ومصادره الشفهية؛ تلك المصادر التي صاغتها ذاكرة مجتمع قبلي «حيطانه الأناء»[1] بعد أن تم شحنها بظروف ذلك المجتمع وطموحاته، ورؤية بعضه لبعض شحناً لا يمكن ـ بحال من الأحوال ـ أن يتصف بالحياد والموضوعية.

I- 2 من هنا تظهر العوائق المعرفية والتاريخية التي تعترض كتابة «مقدمة في تاريخ الشعر الموريتاني» إنها عوائق ندرة «الوثيقة» دليل الباحث ومصدره، وعدم حيادها إن وجدت، عوائق التأريخ لشعر غير مدون النصوص ـ لا في القديم ولا في الحديث ـ أو مدوّن على شكل مخطوطات في كراريس الشعراء وأحفادهم، أو في ذواكر الأحياء منهم بصورة يستعصي على الباحث أن يستجليها استجلاء يمكنه من رصد نقاط تطور ذلك الشعر، وفترات ازدهاره وبؤر أزماته؛ خاصة أن تعاطي الشعر في المجتمع الموريتاني ـ القديم والحديث ـ كان دائماً من سمات الفتوة التي حاول كل أن يأخذ منها بطرف؛ الأمر الذي سوغ شيوع أحكام مبالغة كالقول «إن موريتانيا بلد المليون شاعر».

I- 3 ويضاف إلى العوائق السابقة ما يتعلق بهدف هذا المكتوب؛ إذ لا يريد أن يخرج من حدود «المقدمة» التي تقصر ـ عادة ـ عن إثارة التفاصيل والإجابة عن كل الأسئلة؛ فقط تريد أن تزوّد القارىء بصورة ـ ولو غير شاملة ـ عن القصيدة الموريتانية: مراحلها وملابسات إنتاجها ومواصفات بنيتها حتى فترة النصوص المنشورة في هذا العدد.

I- 4 وسنقدم هذه الصورة ضمن وقفتين:

نستعرض في أولاهما تاريخ الشعر الموريتاني حتى النصف الأول من القرن العشرين، وسنوزع هذه الوقفة إلى أربع نقاط:

ـ شعر النشأة أو ما قبل القرن 12 هـ/18 م

ـ شعر القرن 12 هـ/18 م

ـ شعر القرن 13 هـ/19 م

شعر القرن 14 هـ/19 م

I - 4 - 1 وليس فصلنا هذه المراحل من باب التسليم بجدوائية التحقيب نقدياً؛ إذ لا يترتب عنه بالضرورة أن يكون شعر مرحلة زمنية متميزاً عن شعر أخرى فنياً، إنما دعتنا إلى هذا التقسيم مجرد الحاجة المنهجية التي تقضي أن ينتظم الكلام خطياً، مع أن الصورة ينبغي أن تظهر ملامحها دفعة واحدة.

I- 4 - 2 ونخصص الوقفة الثانية لبعض الملاحظات التحليليّة ندرجها ضمن النقطتين التاليتين:

ـ الشعر الموريتاني والعلاقة بالشعر العربي

ـ الشعر الموريتاني وإشكال القراءة والنشر.

II ـ تاريخ الشعر الموريتاني

II - 1 يشكو التاريخ العام لموريتانيا ندرة في الوثائق وعدم تسلسل في الأحداث[2]؛ الأمر الذي حدا بالشيخ سيدي بابه (1860 - 1924) إلى القول: «وكنت أتعجب من علماء هذه البلاد (...) وأدبائها على فضلهم ونبلهم كيف لم يعتنوا بتاريخها في كتاب معتبر من أول الزمان مع كثرة ما وقع فيها من الأمور الكبار التي ينبغي الاعتناء بكتابتها، وكثرة من كان بها من الأكابر من كل صنف الذين لا ينبغي أن نترك أخبارهم نسياً منسياً»[3].

II - 2 ومن البدهي أن تاريخ الشعر جزء من التاريخ العام للبلد، لم يجد عناية تحدد نشأته وتطوره؛ لذلك ولد مكتملاً في القرن 12 هـ/18 م، وهو ما لم يستسغه كل الباحثين انطلاقاً من مبررات ثلاثة:

1 ــ وجود نصوص موثقة ومروية ـ وبغض النظر عن درجتها من الفنية ــ قبل الفترة المذكورة بكثير.

2 ــ أن حملات الفتح الإسلامي وصلت المنطقة في القرن الأول الهجري، وتكونت بها دولة إسلامية جاهدت السودان «حيث بسطوا نفوذهم على مدينة أودغاست منذ القرن الثاني الهجري (...) وكان لهم بها خلال القرن الرابع دولة قوية ذات صلات وثيقة بالمغرب الإسلامي»[4] أيام ازدهار الدولة الأموية الثانية فيه، ثم انطلقت منها دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري، ووصلتها هجرات عربية جماعية غير هجرات الفتح الأولى ابتداء من القرن السابع الهجري[5]؛ لذلك لا يعقل أن تتأخر نشأة الشعر فيها حتى الفترة المذكورة.

3 ــ أن وجود شعر فني مكتمل وناضج في القرن 12 هـ/18 م هو في حدّ ذاته دليل على وجود نشأة للشعر سابقة على التاريخ المذكور[6].

II - 3 شعر النشأة أو ما قبل القرن 12 هـ/18 م:

II - 3 - 1 وتلمسا لهذه النشأة المفترضة وجد بعض الباحثين أن صلة المنطقة (موريتانيا) بالشعر تدرجت «فبدت مبكراً في المنطقة الشمالية من البلاد ـ منذ القرن الخامس الهجري ــ على أيدي أفراد شتى قدموا في أزمنة متفاوتة ومن جهات مختلفة (...) وتعززت هذه الصلة نوعاً ما على أيدي نفر رحالة جابوا مثنى وفرادى بلاد المغرب وجالوا بين مراكز العالم الإسلامي، ثم تحددت ابتداء من أواخر القرن التاسع الهجري وطيلة القرن العاشر والحادي عشر الهجريين فأخذت تتخلق على أيدي رجال فقهاء وفي ربوع المنطقة الشرقية أساساً (...) بمراكزها الحضرية ـ ولاته خاصة ــ نشأة للشعر عامة أهم ما يميزها أنها من نتاج الهضم التاريخي للثقافة الإسلامية العربية محلياً، وإن شكلت نماذجها ضعف التجارب الأولى وتعثرها، كما حملت مضامينها روح التدين الصارم الذي لم يكن للفقيه الشاعر في تلك الأزمنة فكاك من أسره (...) ثم أخيراً بيئة القبلة الوارثة التي شهدت في الطور الثالث اكتمال النشأة الفنية وانطلاق الشعر نحو آفاق أرحب»[7].

II - 3 - 2وعند هذا الباحث أن حلقات نشأة الشعر كانت متسقة مع المراحل التي لاحظ أنها مراحل التطور الثقافي للبلاد؛ حيث صحب «طور الشعر الوافد مرحلة الاستيعاب خاصة من الفترة ما بين القرن الرابع الهجري ومنتصف السابع، ويواكب ميلاده المحلي الفترة الأولى من مراحل الكمون حتى آخر النصف الأول من القرن الحادي عشر، بينما يواكب طور اكتمال النشأة الفترة الثانية من الفترة الثانية من نفس المرحلة ابتداء من النصف الثاني من القرن الحادي عشر...»[8].

II - 3 - 3 وكما أسلفنا فقد غلبت على قصيدة النشأة أو ما قبل القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي المضامين الدينية، ومال الشاعر فيها «إلى الإخبار قبل الإنشاء ميلاً فرضته عليه طبيعته كفقيه معلم، وإمكاناته الثقافية، وحاجات محيطه التي لم تكن في مبدإ أمرها جمالية بل كانت تربوية (...)، [كما] خلت المقطوعات والقصائد من أي أثر للمقدمة الغزلية أو الطللية خلواً تاماً»[9].

II- 3 - 4 ومن شعراء هذه الفترة الإمام الحضرمي (ت 498 هـ) وإبراهيم الذكواني (الذي كان حياً عام 609 هـ)، ومحمد قللي (من أهل القرن السابع) ومحمد بن مسلم الدبسني (من أهل القرن التاسع)، ومحمد باب بن محمد الأمين (ت 1014هـ) [10]...

II - 4 شعر القرن الثاني عشر الهجري/18 م:

II 4- 1- وإذا كان شعر ما قبل القرن الثاني عشر قد اتسم بما تتسم به البداية من عدم النضج الفني، فإن القرن الثاني عشر قد عرف شعراً مستوياً في معانيه ومبانيه؛ حيث خرجت القصيدة فيه من أسر المعاني الدينية، والارتباط بالوظيفة التعليمية عن طريق نظم المعارف، ذلك أن شعراء هذا القرن ـ فيما وصل إلينا من أشعارهم وأخبارهم ــ قد طرقوا كل الأغراض، وامتهنوا الشعر؛ فمدحوا وهجوا وتغزّلوا...

II - 4- 2ورغم أن المصادر الموجودة بين أيدينا لا تحتفظ بالكثير من شعر هذا القرن فإن المتوفر منه لدينا[11] ومن أخبار ذويه يدل على ما أسلفنا؛ لذلك وصف ابن بلن الولي (ت 1219هـ) أحد شعراء هذا العصر ـ وهو ابن رازكه ــ بأنه «كان أشعر أهل زمانه وفارس ميدانه شهد له بذلك الموافق والمخالف (...) يورد في شعره من محاسن البديع ما تعجز عنه أفهام البلغاء وألسنة الشعراء كأنه شعر العرب المولدين»[12]، وقد حذا ابن أباه هذا

الرأي، حين صنف شعراء هذا الجيل ضمن المدرسة البلاغية التي ولت وجهها شطر القصيدة الأندلسية والعباسية رغم اختلاف الظروف المناخية[13]، وإن كان أحمد بن الحسن يرى أن شعر هذا الرعيل «شعرَ وثيق الصلة بالدرس اللغوي نحواً وبلاغة، استنفد أصحابه قواهم في تجسيد المقاييس النقدية كما تلقوها في المتون التعليمية، وتذوقوها في الدواوين المغربية الأندلسية وتعاطوا القريض نشاطاً ثانوياً لأنهم كانوا بالأساس علماء مؤلفين مدرسين [14]، فإنما لينسجم مع افتراضاته بأن شعر هذا الرعيل شعر نشأة وأن البلاد لم تتعرب مبكراً؛ الأمر الذي يظهر لنا عكسه تماماً، إذ نرى أن ضياع شعر الذيب وبوفمين اللذين اشتهرا بأغراض كالهجاء دون شعر ابن رازكه ومحمد اليدالي، وأن امتهان الأول للشعر بضاعة لها رواج في بلاط السلاطين[15] ونضج شعره، كل ذلك يدل على أن شعر هذه الفترة كان بعيداً من رقابة الفقيه المعلم، وهو ما جعل الذاكرة الورعة ـ بعد ذلك ـ تنساه فيضيع شعر الشعراء الخلص ـ كالذيب وبوفمين ـ، ويحتفظ بشعر الشعراء الذين اعتنوا بالثقافة الدينية والتعليمية إلى جانب الشعر مثل ابن رازكه ومحمد اليدالي[16].

II - 4 - 3 وأياً ما كان الأمر فإن شعر القرن الثاني عشر الهجري يمثل البداية الحقيقية والمكتملة للشعر الموريتاني؛ إذ يدل ما تركه أهل ذلك القرن من أشعار وأخبار على أن ذويه رعوا الشعر وأعطوه مكانة خاصة في ثقافتهم، وامتهنوه بضاعة عيش وركوب سمعة وتقدير إلى محافل الأمراء، كما تذوقوه تذوق الفنانين فشرحوه وقوموه[17].

II - 5 شعر القرن الثالث عشر الهجري/19 م:

II - 5 - 1 وإذا كان القرن الثاني عشر قد شهد البداية المكتملة للشعر الموريتاني فإن القرن الثالث عشر ـ بدون منازع ـ كان فترة متميزة في التاريخ الثقافي الموريتاني؛ لدرجة يمكن القول معها إنه «إذا جاز إطلاق تسمية «العصر الذهبي» على فترة من تاريخ الثقافة العربية الإسلامية في بلاد شنقيط فهي ولا ريب القرن الثالث عشر»[18].

II - 5 - 2 وقد عرف الشعر في ذلك القرن نقلة نوعية في مستوييه الكمي والكيفي؛ ذلك أن الحياة الثقافية الشنقيطية في القرن الثالث عشر قد اتسمت باكتساب الشعر شرعيته الكاملة، واحتلاله مكانة مرموقة في السلم المعرفي إنتاجاً فنياً قائم الذات مستقل الخصائص»[19]، ولذلك كثر قائلوه، وطرقوا به كل الأغراض، فوصفوا مواطن الإثارة في المرأة، وزجروا العذال، وجهروا بممارساتهم، وتبادلوا أقذع الهجاء، دون أن يثير ذلك ضغائن الفقهاء، وكل ذلك كان إلى جانب المديح النبوي والشعر التوجيهي والتوسلي والوعظي.

II - 5 - 2- 1 وقد كان لتلك النقلة النوعية، دوافعها الاجتماعية والثقافية والفنية؛ إذ يبدو أن قرض الشعر في ثقافة أهل ذلك القرن كان مظهراً من مظاهر الفتوة وعلامة من علامات النبوغ، ودليلاً من أدلة الشرف، تلك الصفة التي يسعى الطموحون في المجتمعات البدوية إلى التمسك بها، يقول محمد بن السالم (ت 1310 هـ) [البسيط]:

مصداق أني كريم العيص منتسب

إلى قريش بيوت العز والجدل

نظمي القريض وإحكامي قوافيه

ولا أميز بين العطف والبدل

كما أن انكباب أهل ذلك القرن على الثقافة الشعرية ـ دون الثقافة التعليمية العروضية والنحوية ...ـ ولد لديهم ملكات قول الشعر، وقد قال ابن خلدون «إن لعمل الشعر وإحكام صنعته شروطاً: أولها الحفظ من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها»[20]، والمراجع الشعرية التي اعتمدها الشعراء يومئذ أكثر من تحصى أو تصنف في فترة زمنية واحدة[21].

II - 5 - 2- 2 وقد ظهر ذلك جلياً في شعرهم فكان دليلاً واضحاً على أن ذويه تمرغوا في الثقافة الشعرية العربية كل ممرغ، فجالوا في أوديتها وفتراتها مندفعين وراء رغباتهم الفنية وغاياتهم الدينية والأخلاقية «فكان لنا من ذلك شعر كثير مختلف ألوانه»[22].

II - 5 - 3 ويعتبر كتاب «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» لأحمد بن الأمين الشنقيطي (ت 1331 هـ) أول مرجع عن آداب هذه الفترة، إن لم نقل المرجع الوحيد عن أدب البلد عموماً، وقد طبعه صاحبه سنة 1911 في مصر، وتتالت طبعاته بعد ذلك، ثم كان كتاب «الشعر والشعراء في موريتانيا» للدكتور محمد المختار بن أباه لتكملة هذا

الكتاب؛ حيث استدرك عليه نصوصاً وأدباء ورؤى، وقد طبع كتابه سنة 1987 بتونس، كما حققت بعض دواوين هذا القرن، وإن كانت ما تزال مخطوطة أو مرقونة في أحسن الأحوال، يضاف إلى ذلك أن شعره لقي بعض العناية من طرف الباحثين فخصصت له رسائل وأطروحات جامعية[23].

II - 6 شعر القرن الرابع عشر الهجري/20 م:

II- 6 - 1 يتميز هذا القرن ـ على المستوى السياسي العام للبلاد ـ بأنه عصر الاحتلال الفرنسي الذي تم عام 1902، وإن كان لم يتركز في عموم البلاد إلا بعد عقدين أو ثلاثة، نظراً لشراسة المقاومة، وترامي أطراف البلاد، وصعوبة مسالكها، واتصاف جل سكانها بصفة البداة الرحل، كما يتميز من جهة ثانية بأنه عصر دولة الاستقلال التي قامت منذ 1960 في ظروف إقليمية متميزة[24] فرضت عليها أن ترتبط أكثر بالدول ذات الثقافة الفرانكوفونية.

II- 6 - 2 ولا شك أن الظروف السياسية العامة لهذا القرن لا يمكن أن تنعكس انعكاساً أوتوماتيكياً على الشعر، لكن تأثيرها لا يمكن أن يغيب نهائياً؛ فقد قلّت بعض دواعي القصيدة القديمة مثل الحروب القبلية، وظهرت دواع جديدة كالمقاومة السياسية والثقافية إبان الاستعمار، وتحديد الهوية والتعريب... بعيد الاستقلال.

II- 6 - 3 ويبدو أن القصيدة الموريتانية في نهاية القرن الثالث عشر والأربعينيات الأولى من القرن الرابع عشر قد عرفت ـ إلى جانب جزالتها التي ظلت قائمة عند كثير من الشعراء أمثال محمد النانه ولد المعلى (ت 1402 هـ) ـ اتجاهاً يميل إلى الشعبية مطوعاً عروض الخليل والمعجم العربي الفصيح إلى قبول التزاوج مع المعجم العامي الشعبي، وقد مثل هذا الاتجاه محمد بن أحمد يوره (ت 1340 هـ)، كل ذلك إلى جانب ضروب من الصناعة اللفظية والأحاجي والألغاز بسبب المناظرات التي كانت تقع بين الشعراء.

II- 6 - 4 ويبدو أن مظاهر التجديد بدأت تظهر في القصيدة الموريتانية منذ الخمسينيات من هذا القرن، وإن كان ظهورها ظل حيياً حتى السبعينيات منه؛ حيث لا يبدو أي أثر لعنونة القصائد[25] أو كتابتها على الطريقة الجديدة عند شعراء الخمسينيات والستينيات، وإن اتسمت بعض قصائدهم بوحدة الموضوع وخلت من المقدمة الطللية في بعض مظاهرها كما في ديواني شيغالي ولد أحمد محمود (ت) ومحمد بن أحمد فال (ت 1969). أما جيل السبعينيات فقد التزم عنونة قصائده كما نجد في دواوين أحمد ولد عبد القادر (المولود 1941) ومحمدي ولد القاضي (ت 1983) ومحمد الأمين ولد محمد فاضل (ت 1983) (26)، وقد عدل جل شعراء الجيلين «عن الأغراض التقليدية وركزوا على القضايا الوطنية والقومية التي يعيشها المجتمع الذي يعيشون فيه» (27)، أما شعراء الثمانينات فقد اطلعوا على دواوين الشعر الحديث، وتأثروا بنسب متفاوتة، كما كان حظهم من الثقافة الشعرية القديمة متفاوتاً وهذا الجيل من الشعراء والذي قبله هو الجيل الراهن الذي ماتزال قصائده تنمو شعرياً وحداثياً.

II-6-5 ولابدّ من التنبيه إلى أن القصيدة القديمة ماتزال تجد ذائقتها، وبالتالي مسوغاتها في الساحة الثقافية والموريتانية، وإن بدأت تستعصي على الجيل المتمدرس، وتبتعد عن اهتمامات الباحثين التي هي اهتمامات النشر والإبداع في المجتمعات العربية التي تأخذ اليوم بناصية الكتاب.

II - 7 وهكذا نستطيع بعد هذا العرض ـ المخل أحياناً ـ أن نلفت الانتباه إلى أن الفصل بين المراحل والقرون السابقة ليس إلا فصلاً منهجياً، كما يتضح من أفكار هذه المقدمة، وإن لم تتكامل الوثائق بعد حول تاريخ الشعر الموريتاني، فإن الباحث يستطيع أن يجزم بأن بدايته كانت سابقة على القرن الثاني عشر، وأن القرن الثالث عشر عرف نقلة نوعية في تاريخ القصيدة الموريتانية، ليأتي القرن العشرون حاملاً معه متغيراته وظروفه فتظهر في القصيدة الموريتانية بعض تلك المتغيرات والظروف، على أن ظهور الحداثة الشعرية ـ بمعناها النقدي ـ جاء متأخراً نسبياً وظل حيياً، ولا يستطيع الدارس أن يجزم ـ اليوم ـ بأن القصيدة الحديثة أخذت مكانتها على حساب القديمة في موريتانيا كما حدث في بلدان عربية كثيرة.

II ـ ملاحظات تحليلية

III- 1 لا شك أن العرض السابق يطرح عدة ملاحظات لعل أولاها ما يتعلق بعلاقة الشعر الموريتاني بالشعر العربي؛ إذ يرى بعض الباحثين «أن الصورة التي نراها لشنقيط في هذين القرنين ـ[12 هـ و13 هـ] ـ جديرة أن تعدل الحكم الذي اتفق مؤرّخو الأدب على إطلاقه على

الأدب العربي عامة»[26]؛ الأمر الذي يعني أن لا يكون الشعر الموريتاني قد عرف ما عرفه الشعر العربي من «انحطاط» في عصوره المتأخرة التي ابتدأت منذ حكم المماليك حتى حملة نابليون على مصر.

III - 1 - 2 وهكذا يكون الشعر الموريتاني ـ في نظر هؤلاء الباحثين ـ «ظاهرة استثنائية في تاريخ الأدب العربي جديرة بأن تدرس ويبحث عن مثيلاتها الممكنات وإن لم نعثر على ما يبشر أن لها مثيلاً»[27].

III - 1 - 3 وتعود تلك الاستثنائية إلى ما أسماه الباحث «التفاوت الثقافي في الزمن العربي» قائلاً: «ففي قرون النماء والازدهار العربيين كانت هذه البلاد صحراء الملثمين وتخوم السودان لا علم ولا أدب، وحين استوت الثقافة الإسلامية على سوقها علوماً وأدباً (...) كانت البلاد العربية عموماً قد دخلت في وضع حضاري متسم بالجمود ولم تكن بنية الثقافة العربية الإسلامية إذ ذاك مهيأة لاستقبال هذا الوليد الجديد»[28].

III - 1 - 4 ولأن ازدهار هذا «الوليد الجديد» (الشعر الموريتاني) كان في القرن الثالث عشر الهجري (19) فقد ذهب الباحثون إلى اعتباره شعر ريادة وسبق يكذب ما تعارف عليه التاريخ الأدبي من ريادة البارودي وشوقي وغيرهما من رواد مدرسة الإحياء. يقول أحمد بن الحسن «إن ابن الطلبة... محيي الشعر الجاهلي ومعارض الأعشى وحميد والشماخ قد ولد سنة 1774 م أي قبل البارودي بأربع وستين سنة، وتوفي سنة 1856 م والبارودي ابن ثماني عشرة سنة، وذلك قبل ميلاد أحمد شوقي بثلاث عشرة سنة... وإن ابن الشيخ سيدي صاحب العينية[29] قد ولد قبل البارودي بست سنين وتوفي قبل سنة من ميلاد أحمد شوقي»[30].

III - 1 - 5 وهكذا لا يعدم الباحثون في القصيدة الموريتانية بعض المميزات تبيح لهم أن يعترضوا على تاريخ الشعر العربي خاصة التعميم «بانحطاطه» في القرون المتأخرة، كما يجدون في ازدهار القصيدة الموريتانية أثناء القرن الثالث عشر (19م) ما يدفعهم إلى القول بريادتها في مجال إحياء أساليب القصيدة العربية والعودة بها إلى عصورها الزاهية قبل البارودي وشوقي.

غير أن الباحثين لا ينظرون الفروق التاريخية والاجتماعية والثقافية بين إحياء أساليب القصيدة هنا وهناك؛ لذلك يقعون في مقايسة تنظر الظواهر دون خلفياتها وملابساتها وظروفها.

III - 1 - 6 وبعيداً عن التقليل من قيمة الآراء السابقة فإنه يظهر لنا أن القصيدة الموريتانية لم تكن استثناء فريداً في تاريخ الشعر العربي؛ لا من حيث فنيَّاتها، ولا من حيث «التفاوت الثقافي في الزمن العربي» إنما تكون ظاهرة طريفة إذا نظرنا إليها باعتبار ظروفها وشروطها؛ حيث كان أغلب شعرائها ـ إن لم نقل كلهم ـ فقهاء يتدارسون متون الفقه المالكي، ويتذاكرون أوراد مشائخ الصوفية، ويلقنون معارفهم عن طريق النظم تسهيلاً لطلابهم، ومع ذلك الانشغال الديني الغالب والسلوك الورع استطاعوا أن يهيموا بالحسان، ويتنابزوا بأقذع الهجاء ويتفاخروا بكثرة محفوظهم من شعر العرب الأول، وبذلك خلقوا تراثاً شعرياً كثيراً لم يخل من قصائد جيدة نادرة المثال في شعر العصور المتأخرة، وإن كان ذووه على اتصال دائم بكل ما جد من مظاهر الإبداع العربي، وكانوا يتناشدون قصائد البوصيري ـ مثلاً ـ تبركاً وتيامناً[31].

III - 2 ويظل إشكال القراءة والنشر بالنسبة للقصيدة الموريتانية الأكثر تعقيداً؛ ذلك أن القصيدة الموريتانية تشكو منذ تأسيسها وحتى اليوم فقراً في الدراسات المتأنية الفاحصة المتداولة، كما تشكو ندرة في النشر، إذ لم ينشر ـ حسب علمنا ـ ديوان واحد من دواوين القرن الثالث عشر (19م) قرن ازدهار القصيدة الموريتانية، ونشر ديوان واحد من دواوين القرن الثاني عشر (18 م)، ولم ينشر من دواوين القرن الرابع عشر (20 م) سوى ستة دواوين: خمسة منها نشرت لأول مرة في السنوات الثلاث الماضية، وواحد نشر قبل ذلك بقليل أي في نفس العقد.

ويبدو لنا أن القصيدة الموريتانية لم تواكب تطور القصيدة العربية في العصر الحديث؛ لأنها ظلت شفهية تلقى في المواسم، وكلما تمنعت الثقافة على التدوين اقتربت من الفلكلورية وتأبّت عن سرعة التطور والتجديد.

الهوامش

(1) الأناء:

يقول الشيخ محمد المامي (ت 1302 هـ).

فاقبل العذر من أخير زمان

بدوي حيطانه الآناء

(2) عبد الله ولد محمد سالم: المعارضة في الشعر الموريتاني: II نشر المعهد التربوي /نواكشوط/95.

(3) الشيخ سيدي بابه: إمارتا إدوعيش ومشظوف: :90 - 92 تحقيق إزيد بيه ولد محمد محمود.

(4) أحمد ولد الحسن: الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري: 55 أطروحة دكتوره دولة مرقونة بكلية الآداب بتونس87.

(5) المعارضة في الشعر الموريتاني: 12 وما بعدها.

(6) عبد الله ولد محمد سالم: القصيدة الموريتانية الكلاسيكية: ملاحظات سريعة حول النص والقراءة، مجلة حوليات كلية الآداب/ جامعة نواكشوط: 3/91-92.

(7) عبد الله حسن بن أحميدة: نشأة الشعر الفصيح في بلاد شنقيط: 109 ـ رسالة ماجستير مرقونة بكلية الآداب/ جامعة القاهرة.

(8) نفسه: 111.

(9) نفسه: 181 - 182.

(10) توجد إشارات في كتب التراجم والسير وروايات شفهية عن شعراء هذا الجيل، وقد جمعها عبد الله حسن بن أحميدة في رسالته، انظر ملحقه.

(11) من شعراء هذه الفترة ابن رازكه (1044 هـ) ومحمد اليدالي (ت 1166 هـ) والذيب الحسنى وبوفمين المجلسي وألما بن المصطفى والثلاثة الأخيرة ضائعة أشعارهم وجل أخبارهم والأول نشر ديوانه بتحقيق محمد سعيد بن دهاه سنة 1986 عن مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء/المغرب.

(12) ابن بنان البرتلي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور: تحقيق محمد حجي.

(13) محمد المختار بن أباه: الشعر والشعراء في موريتانيا: 54 تونس 1987.

(14) الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر: 133.

(15) كان ابن رازكه ذا علاقة وطيدة بالسلطان مولاي إسماعيل وابنه الأمير محمد العالم، وكان يقيم معهما مدة، ومدحهما بقصائد. انظر ديوان ابن رازكه: 23.

(16) القصيدة الموريتانية الكلاسيكية: ملاحظات سريعة حول النص والقراءة: 6:6.

(17) شرح الشيخ محمد اليدالي قصيدته «صلاة ربي» في كتاب سماه «المربي على صلاة ربي» وهو كتاب يدل على معرفة صاحبه بأصول العملية الفنية وقوانينها البلاغية والموسيقية. كما يدل على أن أهل ذلك القرن قد ألفوا مثل تلك الكتب وإن لم تصلنا.

(18) الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر:171.

(19) نفسه: 198.

(20) ابن خلدون: المقدمة: 575 دار إحياء التراث العربي.

(21) المعارضة في الشعر الموريتاني:30.

(22) الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر: 159.

(23) أحلنا على بعضها في هذا التقديم.

(24) ظلت المغرب ترفض استقلال موريتانيا وتطالب بها جزء من أراضيها حتى السبعينيات، لذلك لم تدخل نظام جامعة الدول العربية إلا سنة 1973.

(25) محمد ولد عبد الحي: التجديد في الأدب الموريتاني الحديث 185 بحث لنيل شهادة البحث المعمق مرقون.

(26) نفس المرجع: 186.

(27) طه الحاجري: دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب: 439 ط 85/1 دار النهضة بيروت.

(28) الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر: 656.

(29) القصيدة المذكورة تطرح قضية الإبداع الأدبي بين التقليد والتجديد مطلعها:

يا معشر البلغاء هل من لوذعي

يهدي حجاه لمقصد لم يبدع

(30) الشعر الشنقيطي في القرن 13:668.